الحياة الاقتصادية في بغداد كما تعكسها الآثار الاسلامية في العصر العثماني

الدكتور صلاح حسين العبيدي
كلية الآداب - جامعة بغداد

لعب الأتراك العثمانيون دورا هاما في التاريخ الاسلامي وفي التاريخ الانساني عامة ، ودام حكمهم عدة قرون بسطوا خلالها سلطانهم على كثير من الأقاليم العربية ، وقد كان للعامل الديني الأثر الأكبر في استقامة الأمر لهم ، وتمكن سلاطينهم ، فأمسكوا بزمام الأمر،ويبدو أن القدرة الاقتصادية - بشرية ومادية - هيأت الفرصة للسلاطين كي يتسلموا مركز القيادة في مختلف الولايات ، لأن القدرة العسكرية رهن بالقوة الاقتصادية . . ومن هذه الولايات التي خضعت للحكم العثماني آنذاك ولاية بغداد ، الذي جعلنا مدار بحثنا عليها لأن الولايات العربية كثيرة ومتعددة ، مما يتعذر على الباحث تناول الحالة الاقتصادية فيها بهذا البحث ، لذا اقتصر كلامنا عليها حيث حكمها العثمانيون أكثر من ثلاثة قرون . .

وبغداد عاصمة الدولة العباسية ، ظلت مركز العلم والثقافة والمدنية طوال العصور المختلفة ، فلا غرابة أن تحتفظ بدورها الحضاري خلال الحكم العثماني وذلك بفضل الجهود التي كان أهالي بغداد يبذلونها وسعيهم المستمر بين حين وآخر في إبراز هذا الدور رغم التجاوزات التي كان يمارسها بعض الولاة على مختلف مرافق الحياة وحتى لا يكون البحث عابرا غير موثق ، فقد أثرت ان أشفع الكلام بالحجة وأؤيد الخبر بالدليل ليأتي البحث موثوقا والكلام مسندا ، وتعتبر الآثار العربية الاسلامية إحدى مصادر هذه الدراسة ، ولابد أن نعطيها حقها من الاهتمام ، ويدخل ضمن هذا المصدر دراسة المخلفات الأثرية المختلفة التي تشمل العمارة بكل أنواعها وأشكالها ، وكذلك التحف المنقولة من نسيج وأخشاب ومعادن وزجاج وخزف وغيرها ، ومن خلال هذه الآثار نستطيع أن نستنبط الكثير من الحقائق عن النشاط الاقتصادي الذي كانت عليه ولاية بغداد انذاك .

ولعل أبرز ما يلفت نظر الباحث في هذا المجال هو اهتمام اهالي بغداد بالناحية الدينية ، يؤيد ذلك اقبالهم على تشييد المساجد والجوامع والتكايا والربط والمدارس ، وكذلك قيام العثمانيون بإنشاء الخانات والأسواق والسدود والقصور ، بالاضافة إلى صيانة ما ورثه العثمانيون منها ، وان قسما كبيرا من هذه المنشآت لم يزل قائما إلى وقتنا الحاضر وتعرف بأسماء الذين أمروا بتشييدها أو ترميمها .

والمساجد والجوامع التي تعود إلى العصر العثماني كثيرة ، نذكر منها على سبيل المثال جامع المرادية ، وقد دعي بهذا الاسم نسبة إلى مراد باشا والي بغداد (٩٧٤ ـ ٩٨٢هـ / ١٥٦٦ ـ ١٥٧٤م)[١] في عهد السلطان سليم الثاني العثماني ، وجامع الوزير ، وقد سمي بهذا الاسم نسبة إلى الوزير حسن باشا والي بغداد بين سنة (١٠٠٨ ـ ١٠١٢هـ / ١٦٠٠ ـ ١٦٠٤م)[٢]

ومن الجوامع البغدادية التي تعود إلى الفترة العثمانية جامع الخاصكي الذي أمر بتشييده عام (١٠٦٩هـ / ١٦٥٨م) محمد باشا الخاصكي والي بغداد ، فدعي باسمه .[٣]

ومنها جامع السليماني ، ويسمى جامع السراي أو جامع جديد حسن باشا ويقال أن السلطان سليمان عمّر هذا الجامع .[٤] ومنها جامع الأحمدية في الميدان سمي بذلك نسبة إلى بانيه أحمد باشا كتخذا سليمان باشا الصغير ، ويذكر أن أحمد باشا استحضر لبناء جامعه أشهر أساتذة عصره من الفعلة والمهندسين وصرف على العمارة مبالغ عظيمة ، ووقف عليه الأوقاف الجسيمة .[٥]

وإلى جانب هذه الجوامع هناك جامع آخر يعرف بجامع العاقولي وتذكر المصادر التاريخية أن الوالي محمد باشا ، أحد أمراء الدولة العثمانية أمر ببناء الجامع ، وذلك سنة (١٠٥٩هـ / ١٦٨٣م) .[٦]

أولى العثمانيون أهمية كبيرة إلى المباني المدنية ، نذكر منها سراي بغداد ، حيث كان مقرا لولاة بغداد في العهد العثماني .[٧]

وعندما تولى الولاية سليمان باشا الكبير قام بكثير من الأعمال العمرانية في بغداد ، فهدم أبنية السراي وعمرها عمارة لائقة ، وذلك سنة (١٢١٧هـ / ١٨٠٢م) .[٨]

وفي أثناء حكم الوالي نامق باشا (١٢٦٨ ـ ١٢٦٩هـ / ١٨٥١ ـ ١٨٥٣ م) تم تشييد العديد من المباني في بغداد منها القشلة ، وهي ثكنة للجنود المشاة .[٩] كما قام هذا

الوالي بتجديد بناية السراي ، كما شيد العثمانيون بناية القلعة وبناية الكرنتينة أي المحجر الصحي ، كما شيدوا مستشفى المجيدية .[١٠]

ويمكن القول بأنه كان للعثمانيين أثر واضح على الحركة العمرانية في بغداد ، ونستطيع أن نتلمس بصمات الحكم على العديد من المباني العمرانية الدينية منها والمدنية .

ومما لا شك فيه أن تشييد مثل هذه المؤسسات يتطلب توفير المال اللازم لانجازها ، وتجهيز وتوفير المواد الأولية لبنائها ، ومع أن المصادر التاريخية لم تسعفنا بالمعلومات التفصيلية ولا بأية معلومات أخرى عن مقدار ما صرف من مال ومواد على مثل هذه المنشآت ، إلا أن الناظر إلى ما بقي من هذه المنشآت يستطيع أن يعطي فكرة مهما كان مقدار اقتراب الواقع يومئذ لكنه يستطيع أن يخمن ما صرف من المبالغ الطائلة للبناء وما يرافق البناء من احتياجات إلى مواد أخرى وصناعات متنوعة ، كالسقوف الخشبية والشبابيك والأبواب والمنابر والمقصورات وأثاث أخرى ووسائل اضاءة وتغليف جدران الأبنية بألواح القاشاني .

وكانت هناك منشآت أخرى شيدت من قبل المحسنين ووجوه الناس ومن يملك الامكانية في التشييد والبناء والصرف ، وهذه المنشآت يطلق عليها اسم « منشآت الوقف » .

وقد كان الوازع الديني هو الذي دفع بالسلاطين والولاة والمقتدرين من الناس إلى بناء دور العبادة ودور العلم المختلفة التي شيدت لخير الناس ونفعهم مثل المساجد والمدارس والخانات وغيرها ، وكان هذا الوازع الديني سببا في اتباع حبس العقارات والأراضي حتى ينتفعوا بغلتها من الصرف على صيانة تلك العمائر وعلى معاش من يقوم على خدمتها وصيانتها مما كان له أكبر الأثر في الاحتفاظ بعدد كبير من آثارها ، إذ بدون هذه الحبوس الأخيرة لا يمكن أن تستمر تلك الوقوفات لتؤدي واجبها ووظائفها على الوجه الأكمل ، ولدينا شواهد كثيرة تؤكد الخدمات الجليلة التي أدتها مؤسسة الأوقاف خلال الحكم العثماني . .

ومن المصادر الأساسية التي أمدتنا بالمعلومات المهمة المتعلقة بالوقوف هي حجج الوقفيات التي قدمت للباحثين دراسة نافعة ومعلومات قيمة عن تاريخ العمارة العربية وغيرها لما تضمنته من أوصاف تفصيلية دقيقة لكثير من تلك العمائر وأوجه الصرف من صيانة ومرتبات إلى غير ذلك مما كان يستعمله أسلافنا ونحتاج إليه اليوم في أبحاثنا .[١١]

وتكشف الآثار العمرانية البغدادية التي تعود إلى الفترة العثمانية عن حقيقة هامة عن الدور الذي اضطلعت به مؤسسة الأوقاف في هذا المجال ، فمن المنشآت الثقافية المدرسة التي قامت بإنشائها السيدة عاتكة خاتون بنت السيد علي الكبير نقيب الأشراف ببغداد سنة (١٢٢٧هـ - ١٨١١م) ،[١٢] وفعلت مثل ذلك نازندة خاتون زوجة والي بغداد علي باشا عندما قامت بتشييد مدرسة أكملت عمارتها والجامع في سنة (١٢٦٣هـ - ١٨٤٦م) .[١٣]

كما اهتمت نائلة خاتون بالعمارة ويتجلى ذلك في انشائها سنة (١٢٩١هـ - ١٨٧٤م) مدرسة تجاه جامع الحيدر خانة ببغداد .[١٤]

وفي بغداد بنى أحمد باشا الكهية جامعا سمي بجامع الأحدية يقع بقرب الجامع الكبير في ساحة الميدان ، قرب جامع المرادية ، وصرف على عمارة الجامع مبالغ عظيمة .[١٥]

ويمكن أن نضيف السيدة فاطمة خاتون إلى مجموعة السيدات المحسنات في اتجاههن نحو تشييد المدارس والجوامع ، إذ قامت في سنة (١١٨٥هـ - ١٧٧١م) بتشييد جامع النعمانية في بغداد ووقفت عليه مسقفات كثيرة وأراضي وبساتين .[١٦]

وإذا شئنا أن نلتفت إلى أكثر ما يرتبط بالحياة الاقتصادية فإن الأسواق التجارية تعطي المؤشر الحقيقي لهذه الحياة في بغداد في العهد العثماني ، لأن وجود الأسواق المزدهرة اقتصاديا وتجاريا وصناعيا يعني ازدهار الحياة المالية من جميع وجوهها ، انذاك ، فلقد وجدت أسواق عديدة في مختلف المجالات ، وبعضها أسواق متخصصة في معروضاتها أو بضائعها وقسم كبير من هذه الأسواق تدل اسماؤها على نوع البضاعة المتداولة منها ، بحيث اكتسبت هذه التسمية ، ولم تزل بعض هذه الأسواق ومسمياتها موجودة إلى وقتنا الحاضر ، إن هذا التخصص الدقيق في الأسواق يدل دلالة واضحة على وفرة المادة المصنوعة التي كانت تنتجها المصانع العامة على المستوى الحكومي والفردي ، وهذه الوفرة والتخصص يعكس لنا مقدار النشاط الاقتصادي الذي كانت عليه الصناعات المحلية انذاك ، ويؤيد في الوقت نفسه كثرة المواد الأولية التي تدخل في هذه الصناعات ، وفي هذه الأسواق كان يجتمع التجار وأهل الريف والوافدون من الأقطار البعيدة . للتزود بما تنتجه بغداد وما يصل إليها من نفائس البضائع والمصنوعات .

ومن أسواق بغداد المشهورة سوق الغزل ، وسوق التوتنجية ، وسوق الصباغين

وسوق الخياطين ، وسوق القز ، وسوق السراجين وسوق اليورغانجية ، وسوق الاسكجية وغيرها .

ويذكر الرحالة سموئيل الذي زار بغداد أثناء الحكم العثماني لها أنه كان في بغداد أعداد كبيرة من الأسواق المتخصصة مكتظة بالدكاكين فيها أنواع البضاعات كلها .(١٧)

وقد التفت البغداديون خلال الحكم العثماني إلى مجال آخر كان في غاية الأهمية بسبب مردوده الاقتصادي وهو انشاؤهم الخانات في داخل الولاية وعلى الطرق الخارجية لحماية التجارة وتأمين سلامتها من الأخطار ، وتقديم الخدمات إلى التجار والمسافرين وضمان وسائل نقل التجارة والبضائع وادامتها والمحافظة عليها وليس من المستبعد أن تكون هذه الخانات مكانا لعقد صفقات تجارية وتبادل البضائع بين التجار ، وبفضل هذه الخانات شهد الريف البغدادي انتعاشا اقتصاديا ، حيث كان سكان القرى المجاورة لتلك الخانات يعرضون على التجار والمسافرين ما كانت تنتجه مزارعهم من حاصلات وفي المقابل يحصلون من التجار ما يحتاجونه إليه من البضائع فيكون نوع من مبادلة السلع ، ويمكن أن نستدل من أقوال الرحالة الذين زاروا بغداد خلال الحكم العثماني على الأهمية التي كانت عليها تلك الخانات ، فقد ذكر مثلا أنه كان في بغداد بعد فتح السلطان مراد الرابع لها عشرة خانات ينال فيها المسافرون قسطا من الراحة وأن التجارة كانت فيها رائجة .(١٨)

ويفيدنا رحالة آخر شاهد بغداد سنة ١٨١٦م ، فذكر أنه كان في بغداد ثلاثون خانا .(١٩)

ولو ربطنا بين ما ذكر في المصادر من كثرة الخانات وما بقي من آثار شاخصة لها حتى الآن لاكتشفنا ما كان للخان من أهمية اقتصادية تفسر لنا سبب كثرتها وانتشارها بحيث تتمكن من تأدية الخدمات وتقديمها إلى التجار في المجال الاقتصادي والتجاري ، ومن هذه الخانات البغدادية الشاخصة إلى يومنا هذا خان يعرف بالتركية باسم خان الأورتة أي خان النص لوقوعه في منتصف الطريق بين بغداد وبعقوبة ، وقد ذكر أن الوزير عمر باشا هو الذي أمر بإنشائه سنة ١١١٠هـ ، وخان آخر يعرف باسم خان العطيش، وينسب تاريخ بنائه إلى الوالي سليمان باشا الكبير الذي حكم ولاية بغداد سنة ١١٩٤هـ - ١٨١٧ م . وخان آخر يعرف باسم خان المشاهدة الذي يقع ضمن محافظة بغداد حاليا .

أما في داخل بغداد فتوجد عدد من الخانات مثل خان الذهب وخان البريسم وخان الكتان وخان الحياك ، وتعكس لنا هذه الخانات مؤشرا اقتصاديا واضحا لما كان عليه الوضع الاقتصادي من ازدهار .

ومن صور النشاط الاقتصادي الذي كانت عليه ولاية بغداد خلال الحكم العثماني المجال التجاري ، وهو الاتجار بالمواد التي تهم قطاعا كبيرا من المجتمع البغدادي وذات مردود اقتصادي ، ومن الاشارات التي جاء على ذكرها « فيدريكو » أحد تجار البندقية عندما زار بغداد سنة ١١٦٣هـ ، تناول من جملة ما تناوله موضوع التجارة في المدينة فذكر أنه رأى (٢٥) سفينة محملة بالتوابل وسائر البضائع الثمينة قادمة من الهند .[٢٠]

ومن الأعمال التجارية التي كان البغداديون يمارسونها أثناء الحكم العثماني ، تجارة الخيل والماشية ، فقد كان في بغداد سوق كبيرة لبيع الأغنام والماشية ، وقد شاهد الرحالة جاكسون صفقة بيع كبيرة للأغنام والماشية بما يقدر بحوالي « لك » ونصف « لك » قرشا .[٢١]

وهناك تجارة أخرى ببغداد اختصت ببيع الخيول ، ويذكر الرحالة فريزر أنه كان في بغداد سنة ١٨٣٤ سوق كبير يعرف بسوق الميدان اختص ببيع الخيول .[٢٢]

كما كانت تجارة النحاس معروفة انذاك ، حيث كان العراق يصدر كميات كبيرة من النحاس التي كانت تشحن من بغداد إلى البصرة في سفن شراعية ، ويكون النحاس على شكل صفائح صغيرة مستديرة يبلغ عرضها زهاء ست بوصات وسمكها نحو بوصتين وهو من نفس النوع الذي يجري صنعه في انكلترا ،[٢٣] ويذكر جاكسون عن هذه التجارة فيقول لم يكن أحد قبلا يمارسها قد ازدادت بسرعة فغدت تجري بنطاق واسع لأن بعض السفن التي تبحر من البصرة تكون محملة كلها أحيانا بالنحاس وحده .[٢٤]

وإلى جانب ما تقدم وجدت مجالات متعددة ساهمت في تسيير عجلة الحياة الاقتصادية في ولاية بغداد أثناء الحكم العثماني وهي الحرف والصناعات التي اشتهر بها البغداديون منذ أقدم العصور ، وقد تميزت بغداد في هذه المرحلة بمختلف النشاط الصناعي برغم أن الغزو المغولي قد أضر بالصناعة نتيجة التخريب الذي أصاب المراكز الصناعية ، ومع ذلك استطاعت الصناعات البغدادية أن تستعيد نشاطها ومركزها السابق خلال الحكم العثماني ، ويبدو ذلك من اتساع الأسواق وتعددها بحيث أصبحت كل حرفة تتميز عن غيرها بسوق خاص تعرف به ، ومن أمثال هذه الحرف المتميزة صناعة

النسيج وهو يشكل حاجة أساسية وضرورية في حياة المجتمع ، حتى أن انتاجه كان على مستويين حكومي ، وأهلي ، فساهم الولاة والسلاطين في تشجيع هذه الصناعة وانتعاشها الأمر الذي استلزم اخضاع هذه الصناعة للاشراف الحكومي ، فكان بيع المواد الخام التي تباع إلى المصانع الأهلية من خيوط وأصباغ وذهب وفضة تدخل في صناعة النسيج خاضعا لرقابة الحكومة ، ولم تقف هذه الرقابة عند هذا الحد بل كانت الحكومة تراقب أيضا ما تخرجه هذه المصانع الأهلية من أقمشة وكان مندوبها يفحص منتجات الأنوال فما كان منها مستوفيا للشروط المطلوبة أجاز تداوله وتمغه بالتمغة الرسمية وما كان منها غير حائز للمواصفات المطلوبة صادره وأوقف بيعه .[٢٥]

وإذا تعرضنا إلى المحلات المشهورة في هذه الصناعات فتأتي « دار القز » في طليعة هذه المحلات ، وقد اختصت هذه المحلة بانتاج نسيج القز الذي يصنع منه أنواع من الثياب يقال لها القز ومن المعروف أن « دار القز » كانت من محلات بغداد المشهورة خلال العصر العباسي .

والصناعة الثانية التي تدخل في هذه الانماط الصناعية والتي اشتهر العراق بها هي صناعة السجاجيد ، ولما كان العراق معروفا بصنع السجاجيد فقد كان هذا العامل حافزا لدفع السلاطين العثمانيين أن يستعينوا بالمهرة من العمال العراقيين في هذا المجال ، فقام وزير السلطان العثماني سليمان بنقل نساجين من البصرة إلى تركيا لصنع السجاجيد واختص هؤلاء بعدئذ بانجاز السجاجيد إلى السلطان فقط .[٢٦] وهذا يؤكد لنا على أهمية هذا الموصنوع وجودته وسعة انتشاره، وتفوق العراق في هذا الميدان .

والخزف من الصناعات التي عرفت واشتهرت في العراق وبوجه خاص مدينة بغداد ، منذ أقدم العصور لذلك لفتت هذه الصناعات اهتمام الولاة ببغداد فأقبلوا على تنميتها وانتاج الأنواع التي يرغب فيها الناس ويقبلون عليها ، بالاضافة إلى هذا كله ، فإن هذه الصناعة دخلت العمارة لتغطية واجهات الأبنية كالمساجد والمدارس وجدران البيوت وقد أكد الرحالة الذين شاهدوا بغداد ومروا بها بأن هذه الصناعة كانت معروفة جدا ، فيذكر فريزر الذي زار بغداد عام ١٨٣٤م أنه شاهد عدد من المنائر والقباب المغطاة بالآجر المصقول الملون في الغالب باللون الأخضر والأبيض والأصفر والأسود الموشى بالفسيفساء (الموازيك)[٢٧] ولم تزل كثير من الأبنية القائمة إلى اليوم تشهد بوجود هذه الصناعة وانتشارها .

وهناك صناعة أخرى عرفت في العراق واشتهرت قبل العصر العثماني هي صناعة

المعادن ، فقد ازدهرت هذه الصناعة بسبب توافر عدة عوامل تساعد على ازدهارها مثل توفر المواد الأولية ومهارة الصانعين وتشجيع الحكام لهذه الصناعة واعجابهم بها فصنعوا الكثير من منتوجات المعادن مثل التحفيات أو ما كان يستخدم في المدارس والمساجد والبيوت كالشماعد والثريات ووسائل الاضاءة الأخرى وغيرها .

وقد شاهد فريزر أثناء رحلته إلى بغداد نماذج من المصنوعات المعدنية معروضة في أسواق بغداد ، مثل الخناجر المطعمة بالفضة والمسدسات المدلاة من المحزم .[٢٨]

وبالنظر لما تتمتع به الدولة من مركز خطير في العالم ، فقد التفتت إلى أهم صناعة تحتاجها الدول وهي صناعة الأسلحة بنوعيها الخفيفة والثقيلة ، وهذا النوع من الصناعة تحتاج إلى ثروة طائلة لكي تضمن الدولة انتاجها وتوفيرها مما يؤكد بأن الدولة كانت تخصص في ميزانيتها المبالغ لهذه الصناعة .

ومما يؤكد أهمية هذه الصناعة وجود مصانع للأسلحة في بغداد أثناء الحكم العثماني فقد ذكر فريزر أنه كان في بغداد دار خاصة للأسلحة تسمى « دار الأسلحة » ،[٢٩] مهمتها توفير ما تحتاجه الدولة من المعدات الحربية المختلفة .

وشهدت بغداد أيضا انتشارا واسعا في صناعة أخرى هي صناعة الأخشاب التي استخدمت في أغراض مختلفة ومتنوعة ، فكانت تدخل في مجالات الأبنية والأثاث ، إذ كانت تستخدم أبوابا وسقوفا وشبابيك وغيرها ، هذا إلى جانب ما كانت تفرضه ضرورات الدفاع والحماية العسكرية في توفير الخشب ، وذلك لبناء السفن الحربية والتجارية ، وهي تكلف مبالغ كبيرة .

وكانت الصناعة الجلدية من الصناعات التي عرفت في بغداد خلال العصر العثماني ، وكانت تدخل في أغراض متعددة ، حتى أن سوقا ببغداد يعرف بسوق السراجين لم يزل قائما إلى اليوم ، قد اختص بهذه الصناعة وفنونها فمن ذلك صناعة الأحزمة والحقائب وسروج الخيل وغيرها ويذكر الرحالة جاكسون الذي زار بغداد عام ١٧٩٧م عن وجود معامل متعددة لانتاج المواد ذات الاستعمال المباشر كالملابس ومواد السراجة[٣٠] وغيرها .

ولابد لنا ونحن نعدد هذه الصناعات ومراكزها المشهورة أن نتطرق إلى وسائل التعامل والتبادل التجاري ، وكيف كان يتم ، لقد ضرب العثمانيون أنواعا متعددة من النقود مثل الأقجة .[٣١] والقرش والبارة والدينار والدرهم ، وكانت هناك دور ضرب

خاصة لانتاج هذه العملات التي تستخدم كوسيلة للتعامل التجاري ، ومن الأماكن التي ضربت فيها النقود ببغداد الأعظمية إذ نصبت دار للضرب في عام ١٠٢٥ هـ كانت تضرب فيها العملات ،[٣٢] كما كان في بغداد عام ١٨٣٤م دار خاصة لسك النقود أطلق عليها « السكة خانة » .[٣٣]

كما عرفوا وسائل تجارية أخرى تعد اليوم من الوسائل المتقدمة هي وسيلة استخدام الصكوك بدلا من النقود ، وبالأخص في مسألة سفر التاجر أو المسافر ، إذ كانت تسحب صكوك على ذمة تجار آخر في بغداد ، وكانت لها قوة النقد أو العملة وهذا يوفر تسهيلا تجاريا في التعامل بالاضافة إلى الأمان المتوفر لحامله إذ يضمن لنفسه عدم السلب على أيدي قطاع الطرق أو اللصوص بالنسبة للمسافرين ،[٣٤] ويتبع ذلك كله عملية أخرى تعرف اليوم بأسم تصفية الحسابات .

وامدتنا وثيقة عثمانية ،[٣٥] عن بغداد بطائفة من المعلومات التاريخية القيمة والطريفة عن مقدار الرسوم والضرائب وأنواعها التي كانت تستوفي من أصحاب المزارع والأراضي والأغنام وغيرهاخلال حكم دولتي اق قوينلي والصفويين لها .

ومع أن الوثيقة التي وجهها السلطان سليمان القانوني إلى والي ولاية بغداد وقاضيها في ٤ رمضان ٩٤٣هـ / شباط ١٥٣٧م . جاءت في صيغة الغاء أو تخفيض لجانب كبير من الضرائب التي اعتبرت في نظر السلطان من الضرائب المثقلة لكاهل المواطنين إلا أنها أفادت من جانب آخر في التعريف بضخامة العملية الانتاجية التي كانت بغداد تؤديها وتقوم بها سواء في داخل الولاية أو في أطرافها وكيفية تنظيم الحياة الاقتصادية والاشراف عليها . وقد عددت لنا الوثيقة طائفة من الضرائب والرسوم الجائرة مثل « جهار ماهة » و « رسم استيفاء » التي كانت تستوفى من المحصولات التي تبلغ قيمتها الفي اقجة مبلغ قدره مائتان وثماني عشرة اقجة بالاضافة إلى مائة وأربعين منا من الشعير ، كما كانت تستوفى من مجموع الحاصلات ثلاثة طغارات من كل مائة طغار من التركة تحت اسم « صدية » كما كانت تستوفى من المواطنين ضريبة أو رسم باسم « بيشكش » مقدارها عشرين الف اقجة والفي منّ من الدهن بالاضافة إلى اثنين وعشرين اقجة عن كل رأس من الجاموس وما مقداره خمس اقجات باسم « ميرانه »[٣٦] فضلا عن استيفاء عشر عن هذا المبلغ . كما نصت الوثيقة على منع الكارخين من استيفاء أي شيء من الرعية وعليهم أن يزرعوا أرضا تخصص لهم من قبل الامارة بمساحة تكفي للزراعة بمقدار طغار واحد لكل كارخ يتصرف بمحصولها لنفسه .

أما الضرائب التي كانت تستوفى من الفلاحين وتؤخذ من الغلال فهي « عليق » و « زكاردستة » إلى جانب الضرائب التي كانت تستوفى على رؤوس الأغنام والشياة ومقدارها شاة واحدة من كل ثلثمائة شاة باسم « جوبان بكي » .[٣٧] كما كانوا يستوفون ثلاث اقجات عن كل قطيع ظلما ومن كل ثلاثمائة غنم ما يسمى بـ « كرو » بالاضافة إلى أن المباشرين يأخذون شاة أخرى .

كما عالجت الوثيقة الضرائب الخاصة بالبناء ، حيث ركزت على العرصات الخالية من البناء وذلك بعدم استيفاء أي ضريبة من الأشخاص الذين يرغبون في عمارتها ولمدة سنة واحدة على أن تستوفى منهم بعد ذلك خمس مجرد[٣٨] كما نصت الوثيقة على اعفاء من يعمرون الخربات « من الضريبة » وعدم استيفاء أي شيء منهم لمدة سنة واحدة على أن يستوفى منهم خمس مجرد فقط دون مطالبتهم بأية زيادة وذلك لكي تعمر الخربات وتزدهر .

يظهر مما تقدم أنه على الرغم مما حل ببغداد من كوارث ونكبات نتيجة الغزو الأجنبي بقي البغداديون على أصالتهم واعتزازهم بمدينتهم العظيمة فبذلوا ما بوسعهم من جهد في الابقاء على تراثهم الذي أشاد به المؤرخون ولا شك أن دور البغداديين في الحياة الاقتصادية والعمرانية والصناعية والفنية خلال الحكم العثماني كان واضحا ويمكن للباحث أن يلمح ذلك من خلال الشواهد التاريخية والأدلة الأثرية التي جئنا على ذكرها .

معهد البحوث والدراسات العربية
INSTITUT DE RECHERCHES ET D'ETUDES ARABES
مصر العلمية للجامعات العربية

الهوامش

(١) عيسى سلمان ، نجله العزى ، هناء عبد الخالق ، نجاة يونس العمارات العربية الاسلامية في العراق (دار الرشيد للنشر / ١٩٨٢ . منشورات وزارة الثقافة والاعلام العراقية) .

(٢) مصطفى جواد ، أحمد سوسة ، دليل خارطة بغداد ، المفصل في خطط بغداد قديما وحديثا ، مطبوعات المجمع العلمي العراقي (١٣٧٨هـ ـ ١٩٥٨م) ص ٢٣٣ .

(٣) مصطفى جواد ، أحمد سوسة ، المصدر السابق ص ٢٣٤ .

(٤) المصدر السابق ص ٢٣٤ .

(٥) المصدر السابق ص ٢٣٤ ـ ٢٣٥ .

(٦) عيسى سلمان ، المصدر السابق ص ٢٤٨ .

(٧) يوسف شريف ، تاريخ فن العمارة العراقية في مختلف العصور (منشورات وزارة الثقافة والاعلام العراقية / ١٩٨٢) ص ٥٣٢ .

(٨) المصدر السابق ص ٥٦٩ .

(٩) المصدر السابق ص ٥٧٠ .

(١٠) المصدر السابق ص ٥٧٦ .

(١١) شافعي ، فريد ، العمارة العربية في مصر الاسلامية (عصر الولاة) الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ١٩٧٠ ـ جـ ١ ص ٣١٠ .

(١٢) عماد عبد السلام ، عماد ، أثر المرأة في انشاء المؤسسات التعليمية ابان العهود الاسلامية (تعليم الجماهير ، اصدار المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، العدد الرابع عشر ، السنة السادسة يناير / كانون الثاني ١٩٧٩ ص ٥٦ .

(١٣) المصدر السابق ص ٥٦ .

(١٤) المصدر السابق ص ٥٦ .

(١٥) يوسف شريف ، المصدر السابق ص ٥٥٤ .

(١٦) عماد عبد السلام ، أثر المرأة ص ٥٥ .

(١٧) مصطفى جواد ، أحمد سوسة ، المصدر السابق ص ٢١٠ .

(١٨) بغداد ، نشر نقابة المهندسين العراقية ص ٦٦ .

(١٩) رحلتين إلى العراق سنة ١٨١٦ جـ ١ ص ١٩٧ .

(٢٠) بغداد ، المصدر السابق ص ٦٦ .

(٢١) جاكسون : مشاهدات بريطاني عن العراق سنة ١٧٩٧ تعريب ـ سليم طه التكريتي . الناشر مطبعة الأسواق التجارية بغداد ص ٧٦ .

(٢٢) فريزر ، جيمس بيلي . رحلة فريزر ، نقلها إلى العربية جعفر الخياط . مطبعة المعارف بغداد ١٩٦٤ ص ٧٨ .

(٢٣) جاكسون ، المصدر السابق ص ٧٣ .
(٢٤) المصدر السابق ، ص ٧٣ .
(٢٥) مرزوق ، محمد عبد العزيز . الفنون الزخرفية الاسلامية في العصر العثماني . الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٤ . ص ١٠٢ .
(٢٦) وليد الجادر ، الحرف والصناعات اليدوية في العصر الآشوري المتأخر ، مطبعة الأديب البغدادية ١٩٧٢ ص ٣٣٢ .
(٢٧) فريزر ، المصدر السابق ص ٨٢ .
(٢٨) المصدر السابق ص ٨٨ .
(٢٩) المصدر السابق ص ١٥٢
(٣٠) جاكسون ، المصدر السابق ص ٧٢ .
(٣١) اقجة : لفظة تركية تعني السكة البيضاء وهي تطلق على نقد فضي كان وزنه في عهد القانوني ثلاث قراريط ونصف القيراط وكان يسك انذاك في بغداد أيضا بعيار ٨٥٪ من الفضة ، المصدر السابق ص ٥٢٢ .
(٣٢) ناجي معروف ، الحياة الثقافية في بغداد / بغداد نشر نقابة المهندسين العراقية ١٩٦٩ ص ١٧٢ .
(٣٣) فريزر ، المصدر السابق ص ١٥٢ .
(٣٤) انظر جاكسون ، المصدر السابق ص ١٣ .
(٣٥) انظر عطا ترزي باشي ، اقدم وثيقة عثمانية عن بغداد ـ مجلة المورد التي تصدرها وزارة الثقافة والاعلام العراقية ، المجلد الثامن العدد الرابع ١٤٠٠هـ ـ ١٩٧٩م . ص ٥٢٢ ـ ٥٢٤ .
(٣٦) ميرانه : وتعني الأميرية أي حصة الأمير . المصدر السابق ص ٥٢٢ .
(٣٧) جوبان بكي ، « جوبان » بمعنى الراعي و « بك » بمعنى الأمير . المصدر السابق ص ٥٢٤ .
(٣٨) خمس مجرد ، لفظة مولده والظاهر أنها ضريبة تعادل خمس الضريبة التي يسددها غير المتزوجين للدولة ، المصدر السابق ص ٥٢٤ .

معهد البحوث والدراسات العربية
INSTITUT DES RECHERCHES ET DES ETUDES ARABES
مصر اتحاد الجامعات العربية